مدينة حمص

(١) في مدينة حمص واسمها وتاريخ بنائها

من الغريب ان مدينة حمص التي تدل آثارها على قدمها لم يرد ذكرها في الكتب القديمة كالتوراة ولا في الكتابات الفينيقية والمسمارية والهيروغليفية مع ان بلاداً كثيرة واقعة بجوارها ذكر اسمها في الحروب التي قامت بين فراعنة مصر وبين الاراميين والحثيين سكان البلاد الواقعة في وادي نهر العاصي وذلك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد — ولكن الآثار المكتشفة من زمن غير بعيد لم تشر الى مدينة حمص ولا الى شعبها وملوكها وامرائها مع ان قربها لمدينة قدس او قادس حاضرة الحثيين كان باعثاً لعدم اهمال ذكرها ولاسيما انها واقعة في نجد خصب تنهمر عليه كثيرة ومياه غزيرة تصلح للزراعة وتربية المواشي وهي اهم صنعة كان الاقدمون يتعاطونها

واغرب من ذلك ان التوراة ذكرت مدناً هي الآن صغيرة كصدد ورمة وغيرهما وهي تابعة لحمص — واما المدينة التي اشتهرت بهيكلها العظيم الشمس وبقلعتها الحصينة المشهورة فلم تذكرها البتة

ومعلوم ما كتب عن مدينة حماة التي لا تبعد عن حمص كثير من ست ساعات وعن ملوكها وحروبها مع بني اسرائيل[1] وملوك الاشوريين منهم شلمنصر الذي قاتل بنهدد في كركر[2] وكان قبلاً قد تحالف مع ملك حماة (سنة ٨٦٤ ق.م.) ومنهم تغلث فلاسر في سنة ٧٤٠ — ٧٤٢ ق . م[3] وفي الآثار المصرية ذكر لشعوب اراد او ارواد وميزا واليون وليقيا ودردانيا وامراء كركميش وقرقيسيا وحلب ولكن لا شيء عن حمص وملوكها مع انها من البلاد العريقة في القدم كما سيتضح لك ذلك مما يأتي

وبحث العلماء الاثريون عن سبب حمص علّهم يجدون له اثراً في مسمّى غيره. فمنهم من زعم انها لا تختلف عن قدس حاضرة الحثيين مع ان هذه المدينة كانت

(١) سفر الملوك الثاني ص ٨ عدد ٣ — ١٠ وق ١٤ عدد ٢٣ — ٢١
(٢) كانت كركر قرية بجوار حماة . عن مسبرو ص ٤٣٩)
(٣) انظر تاريخ مسبرو ص ٦٩٦

واقعة على ضفة بحيرة حمص المعروفة ببحيرة قدس (كما ذكرها ابو الفداء) ويوجد الباحثون عن الآثار منهم طمسن وكندر وكوتيه حرائب مدينة قدس عند تل نبي مندو في الموقع الذي اسست به مدينة اخرى تعرف باسم لاذقية لبنان

واكتشف الموسيو بونيون القنصل الفرنساوي العام مسلة قديمة عليها كتابة فينيقية ارجع تاريخها الى سنة ٨٤٦ ق . م . وفيها ذكر ملك حماة ولمش يدعى تراكير يفهم منها ان المسلة كانت تقدمة لالهه الور لانتصاره على بنهدد بن حزائيل ملك ارام . فاستنتج الموسيو بونيون من هذا الاكتشاف « انهُ لما كانت مدينة لمش غير معروفة الى الآن ولم يرد ذكر حمص في الكتابات الاشورية ولا الهيروغليفية فلا يستبعد ان يكون لمش الاسم القديم لحمص ولكن لا يمكن قبول هذا الرأي بلا بينات اخرى

ولا ريب في ان اسم حمص اصلهُ ارامي وهو برهان كافٍ على اثبات قدمه فان لفظة حمص سريانية كحماة او حمة وحلب او حلبو وقدس او قدسو وكثير غيرها من المدن والقرى الواقعة في سوريا الشمالية

وقال صاحب كتاب سوريا المقدسة المطبوع (باللاتينية) سنة ١٦٩٥ ان حمص كان اسمها قديماً حمصا ثم حموها حميصا — فيغلب على الظن ان حمصا هو الاسم القديم باللفظ الكلداني (ومعناهُ الحُمّص) ومنها اشتق اليونان اسم اميصا او حميصا

اما علماء العرب فاجمعوا على ان حمص عريقة في القدم وان بناءها من عهد العمالقة

قال ابن الشحنة في تاريخ مملكة حلب (ص ٢٣) ان حلب وحمص بن مهر بن حمص بن حلب ابن مكسف من بني عمليق هما اللذان بنيا حلب وحمص فنسبتا اليهما

وجاء في معجم ما استعجم لابي عبيد البكري القرشي : «حمص مدينة بالشام مشهورة لا يجوز فيه الصرف كما يجوز في هند لانهُ اسمٌ اعجمي سميت برجل من العمالق ويسمى حمص ويقال رجل من عاملة وهو اول من نزلها »

وقال الياقوتي : « حمص بلد مشهور قديم كبير مسوَّر وفي طرفهِ القبلي قلعة حصينة على تلٍّ عالٍ وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق . يذكر ويونث — بناهُ رجل يقال لهُ حمص بن المهر بن حاف (؟) بن مكسف وقيل حمص بن مكسف العمليقي »

وقال ابو الفداء : « حمص مدينة اولية وهي احد قواعد الشام وهي ذات بساتين شربها من نهر العاصي »

فهذه الشهادات وان كنا لا نقدر ان نتخذها برهاناً قاطعاً على بناء حمص في عهد العمالقة لكن يستنتج منها انها كانت معروفة دائماً كمدينة قديمة العهد

ويغلب على الظن ان حمص كانت قديماً بلداً صغيراً خامل الذكر تابعاً لقدس او لحماة ثم عظم قدرها واتسعت في عهد ملوك سوريا السلوقيين وقام فيها ملوك او امراء كانوا يسوسون شؤونها الدينية والمدنية

ومما يؤيد رأينا في خمول ذكرها في سالف الاعصار هو انه لم تضرب فيها النقود الذهبية او الفضية قبل دخولها تحت سلطة الروم واقدم النقود التي ضربت فيها يرتقي عهدها الى دوميسيانس قيصر (سنة ٦٨ ب . م)

ووجد بالقرب منها على مسافة ثلاث ساعات مدينة قديمة كانت مشهورة على عهد السلوقيين الى ايام الفتح الاسلامي اكثرها خراب الآن واسمها الرستن وهي اريثوذة اليونانية . فهذه المدينة كانت ايضاً قديمة كما يشاء في مقالة نشرها المقتطف سنة ١٩٠٨ ومع ذلك لم يذكر اسمها عند الاقدمين

ولنا شهادات من كتب العرب والسريان تدل على قدم مدينة حمص من جملتها ما ذكرهُ بعض المؤرخين عن رجال عظام نبغوا فيها ونشروا العلوم والآداب واولهم ابقراط ابو الاطباء الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد . فقد ذكر ابن العبري المؤرخ ان هذا الطبيب كان ساكناً مدينة حمص(١) ويتردد الى مدينة دمشق ويأوي الى بستان كان له فيها مكان معروف الى يومنا هذا في وادٍ هناك يسمى النيرب

وقال ابن الشحنة في تاريخ حلب (ص ١٨٠) والمعيصة بلد ابقراط الحكيم ويقال حمص . ذكر ابن الرومية في شرح كتاب ديوسقوريدس »

(٢) في وصف مدينة حمص وبريتها
وما لها من الاتصال بارض الميعاد

قال محمد بن الشحنة في كتاب الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب الذي علقتُ حواشيهُ ووقفت على طبعهِ في بيروت سنة ١٩٠٥ م

(١) ابن العبري ص ٨٠ . لكننا لم نر في كتاب عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ان ابقراط الم بحمص بل قال انه كان يسكن مدينة قوس وقرأنا في ترجمة ابقراط لابن ابي اصيبعة ذكر احد تلامذته كان حمصياً واسمه مفتس وللكتاب المذكور وعشر تسعين سنة (عيون الانباء جزء ١ — ص ٣٣)

ومن منازل دمشق حمص وهي مدينة قديمة عظيمة تقدم ذكرها مرات كثيرة في مختصر البلدان . بها مشهد كبير في طرف النبي فيه حصيصة على تل عال ترى من مكان بعيد جداً . قال ابن فضل الله وكانت حمص معظمة عند الروم كرسي ملكهم ولم يزل يشار اليها بالتعظيم وهي في وهدة ممتدة على جانب نهر العاصي في شماليه

« وحمص مبنية بالحجر الاسود الصغير وبها الحجر الابيض ايضاً لكن الاكثر هو الاسود ويستدير بها سور وبها قلعة لا تمنع وفي هذه القلعة قبة يقال ها قبة العباس عليها صورة رجل من نحاس قد بسط يده واشار بالسبابة الى موضع . قال وكانت هذه الصورة بانطرسوس وكان عند اهل حمص مصحف امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فدفعوا المصحف الى اهل انطرسوس واخذوا هذه الصورة لحقهم وجهلهم

« قلت قلعة حمص الآن مصحف يقولون انه مصحف عثمان رضه فان كان صحيحاً فقلعة اعيد بعد اخذه او الحكاية مكذوبة فيه والله اعلم »

وفي كتاب نزهة المشتاق : مدينة حمص مطمئنة لا يدخلها حية ولا عقرب ومتى ادخلت على باب المدينة هلكت على الحال ويحمل من ترابها الى سائر البلاد فتوضع على لسعة العقرب فتبرأ

قال ابن فضل الله وبها من العاصي ماء مرفوع يجري الى دار النيابة وبعض مواضع بها

ومنها الجامع الاعظم وهو جامع كبير حسن البناء وبه عمود يقال انهُ من الكحل الاصفهاني وبها مدارس ومساجد وغير ذلك . قال وبه قبر خالد بن الوليد خرجها ولا يصح وانما هو خالد بن يزيد بن معاوية لان خالد بن الوليد مات بالمدينة (١)

قال وفي تاريخ تيمور لنك انهُ لما اجتاز على حمص لم يتعرض لهُ بتهديد ولا بتنكيد احتراماً لسيدي خالد بن الوليد

قال ابن فضل الله وظاهرها اعني حمص احسن من باطنها لاسيما في زمن الربيع وما يلبس به ظواهرها من حلى الربيع الموشعة بالازهار ما مد النظر ترتو باحداق النرجس وثغور الاقاح وتتوسط بها البحيرة العاصية الماء والصافية السماء ذات السمك منتشرة اليها من الفرات حتى تولد فيها والطير المبثوث في نواحيها

(١) في هذا الكلام نظر فان بعض الاوربيين يزعمون ان قبر خالد بن الوليد هو بحمص

قلت وفي بحيرتها يقول بعضهم وهو العلامة الشيخ بدر الدين بن حبيب :

جزيرة حمص كعبة الفهو اصبحت يطوف بها داني ويسعى لها قاصي
ولكنها للبر والتعف عادة الم تنظروها كيف جاورها العاصي

قال وحمص تتلو اسكندرية مصر فيما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الانواع وحسن الاوضاع(١) . الى هنا نقل عن كتاب ابن الشحنة مع بعض تصرف ووصف مدينة حمص وبرّها العلاّمة الانجليزي بورتر في كتابه الذي صنفهُ سنة ١٨٥٥ وسماهُ « خمس سنوات بدمشق »

قال في كتابه المذكور بجزء ٢ ص ٣٤٢ ما ترجمتهُ :

ان مدينة حمص واقعة في نجد من الصحراء يمتد النظر فيها في بعض المواطن الى آخر مدى البصر وأول امر اهتممت بهِ عند وصولي اليها الارتقاء الى قلعتها الشاهقة ومشاهدة ما يرى فيها من قرى وبلاد وسهول وكان برفقتي احد كهنة الروم الارثوذكس اسمهُ عيسى مشهور بحمص بحسن ورجل آخر اسمهُ سليمان . فرأيت من الاكمة التي عليها بنيت القلعة في جهة الشمال برية واسعة وفي آخرها اربعة تلال منها اثنان يعرفان بقرون حماه والوادي الذي يفصل بينهما واقع على درجة ١٣ من الجهة الشمالية الشرقية وقبل الوصول الى قرون حماه في الطريق المؤدية اليها تُرى قرية مرتفعة اسمها تلّ بيسه وفيها آثار خراب وهي تبعد عن حمص نحو ساعتين ونصف

ورأيت الى الجهة الشرقية تلالاً زرقاء اللون فوق جبال على مسافة بعيدة فقال لي سليمان ان هناك ضياعاً كثيرة مبنية كلها بالحجارة فهناك سلمية التي ذكرها ابو الفدا وتمتد البرية شرقي هذه الجبال الى آخر حدود الافق . واما في الجهة الشرقية تماماً فيرى صف آخر من الجبال تمتد جنوباً الى حدود لبنان الشرقي

وتسير القوافل الى مدينة دمشق في البرية بخط مستقيم يمتد الى حمص ثم يميل قليلاً من جهة الغرب وهناك في مقاطعة لبنان الشرقي جبل شاهق اسمهُ جبل حليمة . ثم بين لبنان الغربي والشرقي الجبل المشهور المعروف بجبل الحرمل .

---

(١) قال الموسيو كوينه صاحب جغرافية تركيا في حمص وحماه ٤٠ الاف نول لنسج الاقمشة الحريرية والقطنية يشتغل بها ٢٨٠٠٠ صانع وقيمة ما يشتغزله من هذه الاقمشة في السنة يبلغ ٤٥٠ر٢١٢ر١٠ فرنكاً (نحو اربعمائة الف جنيه مصري)

فالطريق المذكورة محفورة بين هذه الجبال وبين جبال البحيرة.

اما بحيرة حمص وهي المعروفة ببحيرة قدس كما سماها ابو الفداء، واكثرهم صناعي وقد ضبطت قياسها فوجدت ان معظم طولها ستة اميال ومعظم عرضها ثلاثة اميال (١) وهي على مسافة ستة اميال من حمص. وعلى ضفتي نهر العاصي المسمى هناك نهر الارنط قبال المدينة الساتين المشهورة بجوزها وحسب ثمارها

ومما يستحق الذكر الاسوار الصناعية المبنية في بعض الاماكن كثيرة على ضفتي نهر العاصي فانها مبنية على شكل زاوية ويختلف طولها من خمسين الى مائتين وخمسين قدماً وهي مكسوة بحجر يضاهي الشبه باثار بعض الابنية القديمة المزوجة حجارتها الصغيرة بالكلس

وقد بنيت الاكمة التي شيدت عليها قلعة حمص بعض هذه المواد وقدرت قطر عرضها بثلاثة ارباع وعرضها بمائتي قدم وحول القلعة خندق هو الآن مغطى بالتراب والحجارة التي يرميها فيه اهل المدينة ورأيت بعض جوانب الاكمة مبطناً بحجارة رخامية كبيرة وقد رفع اكثرها من القلعة لتبليط شوارع المدينة وعند قمة القلعة جدار غليظ جداً مبني بحجارة غليظة مزوجة بالكلس

ومدينة حمص واقعة شمالي القلعة وهي من نظم واتقن ما رأيت من البلاد في سورية فان شوارعها مبلطة وجدران بيوتها من الحجر فلا يكون فيها الاوحال نظير سائر المدن الشامية. ولا يرى في حمص آثار ابنية قديمة الا بعض الحجارة الكبيرة وقطع اعمدة صوانية وحجارة كلسية مبعثرة في الشوارع وهي تدل على عظمة حمص قديماً وجمال هندستها وكل ما يشاهد فيها من البناء هو حديث العهد ما خلا قسماً صغيراً بجانب القلعة واليه يأتي البدو لتدمير ما بقي من تلك الآثار (٢)

يوسف اليان سركيس — متأدبي البقيعة

---

(١) قال ابو الفداء: بحيرة قدس وهي بحيرة حمص طولها من الشمال الى الجنوب نحو ثمان مراحل وعرضها طول البلد حسبما ذكرناه وهي مصنوعة على نهر الارنط فانه قد سدّ غربي البحيرة الشمالي سد بحجر من عمارة الاوائل ينسب الى الاسكندر وفي وسط السد المذكور برجان من حجر الاسود وطول السد مائة وعشرة اقدام ومائتان وسبعة وثمانون ذراعاً وعرضه ثمانية عشر ذراعاً ونصف ذراع وهو حابس لذلك الماء العظيم حتى لو خرب السد سال الماء وعدمت البحيرة وصارت نهراً وهي في اثر مستوية ربع عن حمص نحو يوم في عرضها وعمقها بما يسمك

(٢) في حمص الآن دائرة قديمة العهد اكتشف منها حديثاً بعد رحلة المحرر بزمن